

## جوهر التربية والتعليم على أساس التقوى



جرت العادة عند تعريف ما هي التربية الإسلامية وتبينها، على التركيز على مفهوم العبودية والاستناد إلى الآية (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّـ وَالإِنْسـ إـلا لـيَعْبُدُونـ) (الذاريات/ 56)، ولكن فقد استُخدِـم مفهوم العبودية في القرآن الكريم ليشير إلى العبودية لغير الله أيضاً كعبودية الملائكة [1] أو الشيطان [2] وغير ذلك. بل وتعرّض القرآن الكريم إلى عبودية الله سبحانه بأشكال مختلفة أيضاً كال العبودية التكوينية لجميع الموجودات [3] أو العبودية لله تعالى عن طريق عبادة غيره [4]. أي، أن مفهوم العبودية لا يشير بشكل خاص إلى سلوك معين أو حالة محددة ومتميزة للإنسان المؤمن.

ويتبين من إعلان جميع مَن في السماوات والأرض العبودية لله تعالى والاعتراف بها، مع الأخذ بعين الاعتبار الاختلافات والفرقـات الواضحة بين تلك الموجودات، يتبيّـن أن ذلك أن للعبودية صوراً مختلفة وأشكالاً متباينة. ولمـا كان الاختلاف والتنوع القائم بين الموجودات نـا بـعاً من اختلاف مراتـبها الـوجودـية فإنـ تنوـع أشكـالـ العـبـودـيـة يـفـسـرـ كذلك بـأنـه نوع من الاختلاف في المراتـب؛ وبالتالي يمكن اعتبار العبودية حقيقة متعدـدة المراتـب أو حقيقة تشكيكـية على الرغم من أنـها موجودـة بالفعل في جميع الموجودـات، لكنـها تبقى مختلفة بالنظر إلى كمالـها الـوجودـيـ. وهذا يعني أنـ المـوـجـودـاتـ بدءـاً من الأـجـسـامـ المـادـيـةـ

وانتهاءً بالملائكة المقرب بين الأنبياء والصالحين، قد حصلت على درجات متباينة من العبودية [١] سبحانه. وأمّا نحن بني البشر فقد حصلنا على العبودية التكوينية بشكل ذاتي ولا إرادى، حيث يحتل كلّ منا منزلة خاصة في عالم التكوين باعتباره عضواً من أعضاء هذا العالم المخلوق، فكلّ جزء من أجزاء وجودنا يُقرّ ويعرف بالعبودية [٢] تعالى[٣]. بل وإنَّ الكثير من أفعالنا الإرادية كالعمل والقول والمزاج والرأي، لا تخرج عن قدرة الحق حتى مع الأخذ بعين الاعتبار البحوث المتعلقة بالتوحيد الأفعالي. فكلّ ما سقط الإنسان وهو في مرحلة من مراحل السلوك الشيطاني أو العصيان فإنَّه لن يجد مفرّاً من الاستسلام لإرادة [٤] سبحانه، والإذعان تماماً لقدرته كما يفعل الشيطان نفسه، ليغدو بعد ذلك العبد التكويني للحق [٥]. فإذاً، فما يهمّنا من العبودية [٦] ليس هو الجزء المتعلق بالعبودية العامة والشاملة الجارية في جميع الموجودات، بل مرحلة مُعيّنة أو مظهراً خاصّاً من مظاهر العبودية؛ وهكذا، فلا يمكن اعتبار جميع مظاهر العبودية أو جميع مراتبها هدفاً للتربية الإسلامية لأنَّ هذه الأخيرة تركز على جانب معيّن من العبودية يكون مختلفاً ومتفاوتاً نظراً لخصائص الإنس ومميزاته بالقياس مع الجنّ، ويكون مختلفاً ومتفاوتاً حتى عن عبودية كلّ منها المُشار إليها بشكل متوازن في الآية (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ). ومن الواضح أنَّ هذه المرتبة الخاصة من العبودية تتعكس كذلك على مفهوم التقوى، حيث أشارت بعض آيات القرآن الكريم إلى أنَّ العبودية هي تمهد للدخول إلى التقوى، مثل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (البقرة/ ٢١). إلا أنَّ التقوى بحد ذاتها، تُعدُّ أرضية للوصول إلى السعادة، أو كما يُعبّر عنها القرآن الكريم بـ(الفلاح) وـ(الفوز)[٧]، وما ذلك الفلاح أو الفوز إلا الراحة الأبدية واللذة القصوى. ومن هنا نلاحظ أنَّ بعض الآيات تشير إلى الابتعاد عن الآلام والأحزان والخوف والوصول إلى حياة الفردوس والفوز بالأجر العظيم، والحصول على رضا الحق ومحبّته، وإدراك الفرقان والمعرفة، ونيل المغفرة والعفو والشكر وبركات السماء والأرض، تشير إلى كلّ ذلك على أزيد من مكوّنات الفلاح والفوز وأشكالهما التفصيلية[٨]. وبشكل عام فإنَّه من خلال إجراء مقارنة بين استخدامات القرآن الكريم لمفهوم التقوى ومفهوم العبودية يتبيّن لنا أنَّ اهتمام القرآن ينصب على التركيز على مفهوم التقوى أكثر من المفاهيم الأخرى - بما فيها العبودية - وخاصة في البحوث التي تتناول الموضوعات التربوية والأخلاقية، وذلك لأنَّ استخدام مفهوم التقوى يقتصر فقط على أمور البشر وشؤونهم، لا سيّما المؤمنون منهم، في حين أنَّ مفهوم العبودية قد يشمل جميع أفراد البشر بمن فيهم المؤمنون وغير المؤمنين. يُضاف إلى ذلك أنَّه عادة ما تصاحب الدعوة إلى التقوى أو المفاهيم التي تؤلّف عناصر

التفوى ومكوّناها الدعوة إلى العبودية كذلك[9]. وتشير بعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى: (.. أَنْ إِعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ) (المؤمنون/ 32)، إلى وجود علاقة وطيدة بين العبادة والتقوى[10]، وهكذا فإنّ هذا التمازج والانصهار بين كلّ من عناصر التقوى وعناصر العبودية يحول دون تقدّم أحدهما على الآخر، وبالتالي لا يمكن بسهولة اعتبار أحدهما مقدّمة والآخر بمثابة نتيجة له. غير أنّه في الآيات التي جاء فيها ذِكر العبادة والتقوى جنباً إلى جنب، فإنّ العبادة تعني هنا الدعاء والابتهاج في حين يكون معنى التقوى هو العبادة العملية - كما يُصلح عليه - وهو ما أورده صاحب "تفسير الميزان" كذلك في ذيل تفسيره للآيتين (2) و(3) من سورة نوح: (قَالَ يَأَمَّا قَوْمٌ إِنَّهُمْ لَكُمْ زَادِيرٌ مُّبِينٌ \* أَنْ إِعْبُدُوا اللَّهَ وَإِذْقُوهُ وَأَطْبِعُونَ). حيث قال العلامة الطباطبائي في تفسيره: "وفي قوله: (واتَّقُوهُ دعوتهم إلى اجتناب معاصيه من كبائر الإثم وصفائهم وهي الشرك فما دونه، و فعل الأعمال الصالحة التي في تركها معصية"[11]. ولابدّ من الإشارة إلى أن مفهومي "ال العبودية" و"العبادة" يُعتبران من عناصر التقوى، كمفهوم كلمة (مُخْلِصاً) في الآيتين (11) و(14) من سورة الزمر، وعبارة (وَلَا أُشْرِكَ بِهِ) في الآية (36) من سورة الرعد، و(وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) في الآية (36) من سورة النساء، و(وَاشْكُرُوا لَهُ) في الآية (17) من سورة العنكبوت، و(.. وَلَا تَبْخَسُوا الذَّارَسَ أَشْبَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (الأعراف/ 85)، في الآية (85) من سورة الأعراف. وقد تتضمّن كلمة (التقوى) أو الحالات المذكورة بشأنها تفصيلاً لمفهوم أمري للعبادة والعبودية تدلّ على أنّ مفهوم العبودية بحاجة مصاحبة تلك الحالات للدعوة إلى العبادة والعبودية تدلّ على أنّ مفهوم العبودية بحاجة إلى تفصيل أكثر، فيما تقلّ نسبة صراحته عن نسبة صراحة مفهوم التقوى، كما هو واضح. هذا من ناحية، أمّا من الناحية الثانية، فإنّ مفهوم التقوى يقتصر على إِنْ سبحانه في حين يمكن نسبة كلّ من العبادة والعبودية إلى غير إِنْ كذلك[12]. ناهيك عن أنّ مفهوم العبادة ورد في القرآن الكريم مُضافاً إلى كلمة أخرى أو بعض الضمائر باستمرار، بينما لم يرد مفهوم التقوى إلا مع بعض الكلمات مثل (لفظ الجلالة: إِنْ) و(ربّ) و(النار) و(اليوم)[13]، وضمير الغائب المفرد المذكّر أو ضمير المتكلّم المفرد (نـ)، وورد بمفرده في أغلب الأحيان[14]؛ وعلى هذا، نادرًا ما نلاحظ اقتصار كلمة التقوى على مفهوم العبادة في القرآن الكريم بشكل صريح. فمن جهة يقتصر مفهوم التقوى على الإنسان والأفراد المؤمنين، ومن جهة أخرى يُنسب المفهوم المذكور إلى إِنْ سبحانه، أو كلّ ما يمثل مظهراً من مظاهر قدرته من حيث أَنَّه يشير إلى مظهر من مظاهره، وهنا نرى أنّ مفهوم (التقوى) يفيد معنىًّا صريحاً.

وبصورة عامّة، يبدو أزّه من الأفضل اعتبار التقوى بمثابة الهدف الغائي للإنسان من بين المفاهيم الأخرى التي تشير إلى الغاية، كالعبادة (العبدية) والتقوى والحياة الطيبة والفلاح. ومن الواضح أنّ بعض المفاهيم مثل الفلاح والفوز والحياة الطيبة تشير إلى نتيجة حتميّة ورسالة مُعيّنة ممثّلة بالتقوى. فمفهوم الحياة الطيبة مرتبط بالإحياء الإلهي وإن كان هذا الإحياء حاصل كنتيجة للتقوى نفسها. وبعبارة أدقّ، إنّ غايتنا تشرف على أعمالنا لا الإحياء الإلهي، في حين أنّ الحياة الطيبة تشير إلى التواب الإلهي، وما ثواب الله سبحانه - كما هي الحال مع عقابه - وليس فعلنا نحن، وإن اعتبر الله تعالى فعله مشروطاً بفعلنا نحن. فإذاً فالحياة الطيبة لا تمثل غاية عملنا بل هي نتيجة ذلك العمل وحاصله. ويشير إلى هذا المعنى ما ورد في الآية (179) من سورة الأعراف وهو قوله تعالى: (وَلَقَدْ دَرَأْتَ رَبَّا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسَنِ...) وهي أنّ جهنّم لا تُعتبر الغاية من خلق الإنسان بل هي نتيجة وعاقبة ما يرتكبه بعض الأفراد، كما أنّ الحياة الطيبة تمثل نتيجة عمل البعض الآخر منهم. الآن، وبعدما تبيّن أنّ التقوى هي مفهوم أساسي في التربية والتعليم، لابدّ لنا من فهم أنّ أصل الكلمة التقوى هي (الوقاية) وتعني (ما يُوقى به الشيء من كلّ ما يضرّه). ومعنى التقوى هو حفظ النفس وواقتها من كلّ الأخطار والتهديدات التي تحيط بها. وتشير المحافظة إلى السعي المستمرّ المرتهنّ بثلاث مقدّمات على الأقلّ، هي: . المقدّمة الأولى: معرفة وتحديد العوامل التي تهدّد النفس وكذلك الظروف الخطرة. . المقدّمة الثانية: معرفة العوامل والأساليب التي يمكن بواسطتها أو ردع الخطر وتفاديها. . المقدّمة الثالثة، التنبّه إلى ظروف الخطر وعدم تجاهلها أو الغفلة عنها. وفي ضوء ذلك، فإنّ أساس التقوى يستند إلى المعرفة والانتباه والحذر، أمّا موضوع المعرفة والانتباه والحذر فهو الطرف الخطير أو الوضع الذي يتهدّد النفس. ولا شكّ في أنّ مسألة الانتباه لوضع خطير تختلف عن مسألة التعرّف على ذلك الوضع مما يتطلّب مواجهة كبيرة وعميقة من قبلنا، لأنّ الاهتمام والانتباه لأيّ وضع خطير أو العوامل التي تهدّد النفس، إضافة إلى الأسس والعناصر والأساليب الكفيلة بمنع التهديد وتجذّبه، هي أمور قد تستلزم بعد الوقوع جهوداً خاصة لاستمرارية تلك المعرفة الأوّلية والتنبّه لها وتذكّرها. وتشتمل (التقوى) على الانتباه والذر من الظروف التي تهدّدنا، فضلاً عن معرفة الخطر نفسه. الهوا مثـ:

- [1] - (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِتُمَلَّئُكُمْ أَهْوَالَاءِ إِيّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ \* قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيُذَمِّنَ مِنْ دُونَهُمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكُثْرُهُمْ بِرَهْمٍ مُؤْمِنُونَ) (سبأ / 41-40).
- [2] - (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنْي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا

الشّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) (يس/ 60). [3] - (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَيَ الرَّحْمَةَ مَنْ عَبَدَهَا) (مريم/ 93)، و(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عَنْهُ لَيَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عَبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) (الأنباء/ 19). [4] - (أَلَا لِتَهُ الدَّيْنُ الْخَالِصُ وَالْأَذْيَنُ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْ لِيَءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُفَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) (الزمر/ 3). [5] - أنظر: العلامة محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 9، ص(71-72). [6] - المصدر نفسه، ج 17، ص(606-611). [7] - أنظر: سورة الحشر: الآية 9؛ وسورة آل عمران: الآية 130؛ وسورة البقرة: الآية 189؛ وسورة النور: الآية 5؛ وسورة المائدة: الآية 100. [8] - أنظر: سورة الزمر: الآية 61؛ وسورة الأعراف: الآيات 35 و96؛ وسورة الرعد: الآية 35؛ وسورة يوسف: الآية 109؛ وسورة آل عمران: الآيات 76 و179 و198؛ وسورة يس: الآية 45؛ وسورة الأنعام: الآية 155؛ وسورة الأنفال: الآية 29؛ وسورة النساء: الآية 1؛ وسورة الطلاق: الآية 5. [9] - أنظر الآيات: سورة العنكبوت: الآيات 16 و17؛ وسورة الزمر: الآيات 11 و14 و160؛ وسورة نوح: الآية 13؛ وسورة الأعراف: الآيات 65 و85؛ وسورة الرعد: الآية 36؛ وسورة النساء: الآية 36. [10] - أنظر كذلك: سورة الأعراف: الآية 65؛ وسورة المؤمنون: الآية 23. [11] - العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 20، ص(163). [12] - مثل الآيات: سورة النحل: الآية 73؛ وسورة مريم: الآية 49؛ وسورة الفرقان: الآية 55. [13] - غالب على (النار) و(يوم القيمة) كونهما من متعلقات التقوى من حيث إنّهما مظهران ورمزان لقدرة الحقّ تعالى، ولا يتناهى مع اقتصار هذا المفهوم على الله سبحانه.

[14] - مثل سورة الشعراء: الآيات 1 و14 و106 و161 و177؛ وسورة البقرة: الآية 179؛ وسورة الصافات: الآية 124.